حروف العربية وإشكالية الدلالة والمعنى

أ. د. أحمد حيدوش

لعل من أخص خصائص العربية ما يميز حروفها، وقد شغل الدارسين والباحثين العرب -القدامى منهم والمحدثين- موضوع الحروف ومعانيها، لاسيما تلك الحروف المقطعة التي كانت فواتح لبعض صور القرآن. وأعياهم البحث في أسرارها حتى عدوها من معجزات القرآن التي يصعب الاهتداء إلى دلالاتها ومعناها.

أما النصوص الأدبية فكان البحث في توجيه الحروف لمعناها بارزا، لاسيما عند الأسلوبيين العرب المحدثين، بل حاول البعض الذهاب بعيدا في تأويل دور الحروف في الكلمات وحددوها في مجموعات لا يخرج معناها عن معنى الحرف أو الحروف الحاضرة فيها بحثا عن معجم جديد يعتمد على دلالة الحرف في الكلمة الذي يوجه معنى النص.

تحاول هذه المحاضرة أن ترصد تطور البحث في هذا المجال بالاعتماد على نماذج من التراث ونصوص حديثة للكشف عن دور الحرف في توجيه المعنى انطلاقا من دلالته.

ويستفيد البحث من مصادر أساسية تتمثل في مقاييس اللغة لابن فارس، والخصائص لابن جني، والبرهان في علوم القران للزركشي، وبعض كتب المتصوفة وكتب المحدثين ومنهم على سبيل المثال عبد الإله الصائغ في بحثه عن تداعي الحروف لتداعي المعاني، وبعض المواقع الالكترونية.

لقد حاول المهتمون بالحروف العربية الكشف عن خفاياها وأسرارها الكثيرة، ونجدهم قد ساروا في اتجاهات ثلاثة منذ بدء البحث فيها:

١- اتجاه لغوي تاريخي:

أنشأه علماء العربية الأوائل كالخليل وسيبوية وابن جني وغيرهم، وسار على دربهم المحدثون الذين عملوا على تأسيس علم لأصوات العربية حتى غدت الصوتيات العربية علما قائما بذاته، وتلقف بعض المحدثين هذه الأصول في إطار معجمي ونظروا إليه نظرة أخرى، تؤمن أن لكل حرف معنى محددا إذا عرف أدى إلى معرفة معنى الكلمة في اللغة العربية، فجعلوا الصلة قائمة ومتلاحمة بين لفظ الحرف ولفظ الكلمة أو الكلمات التي تشكل الجملة، وعلى الرغم مما في هذه البحوث من انتقائية واضحة، إذ أنها لا تشمل كل كلمات اللغة العربية إلا أنها إضافة تؤسس لاتجاه علمي موضوعي لغوي تاريخي في أبحاث الحروف. ومن أمثلة ذلك: حرف الفاء يدل على الفراغ (حفرة، كهف، فتحة، فسحة، فضاء، فوهة، فم...).

- حرف السين: يأخذ معناه من طريقة لفظه وهو انتشار الهواء في الفم، وبذلك يشير هذا الحرف إلى كل شيء منتشر (شمس، شعلة، شعر، شجر...).
- حرف الخاء: ويدل على الكراهية (خداع، خبث، خسارة...).

ويعد كتاب "سر صناعة الإعراب لابن جني"، من أهم الكتب، إن لم يكن أهمها على الإطلاق، التي عالجت أصوات العربية، وعلى الرغم من كل المزالق التي وقع فيها الباحثون في هذا المجال، إلا أن هذا التوجه اللغوي التاريخي الذي يبحث في أصل شكل أو رسم كل حرف من حروف العربية التي وصلت إلينا، على الشكل الحالي المستقر/ المضطرب، إلاّ أن هذا التوجه كفيل بأن يؤسس لعلم حقيقي للحروف، لاسيما وأن الحرف العربي قد ضاع اليوم رسما ونطقا عند كثير من الناطقين به.

لا شك في أن شكل الحروف قد أتى نتيجة تطور تاريخي كما يذهب إلى ذلك جل الباحثين في هذا الموضوع، وأن العرب طوروا كتاباتهم

بعدما غيروا أشكال الحروف قليلا لتنسجم مع هيئة النطق في الفم، فأنتجوا بذلك لغة تتطابق فيها طريقة لفظ الحرف مع رسمه.

إن هذا التوجه رسم معالمه الخليل بن أحمد وعمقه ابن جني وطوره علماء اللغات السامية والباحثون في أصول الكتابات القديمة، الذين يرون أن أسماء الحروف السامية جاءت حينما اخذ القدماء صور الكلمات الهيروغليفية المصرية، وأغفلوا نطقها القديم، وأطلقوا عليها ما يقابلها في إلقائهم للدلالة على الصوت الأول من تلك الكلمات وتركوا الباقي، فعلى سبيل المثال أخذوا صورة (رأس الثور) وأغفلوا نطقها في اللغة المصرية وأطلقوا عليها ما يقابلها في لغتهم، وصارت هذه العلامة بعد ذلك رمزا لحرف الألف الذي هو الحرف الاول من كلمة (ألف) السامية وهكذا في بقية الحروف(١).

إن دلالة الحروف ومعاني تراكيبها قال عنها سيبَوَيْه:

- حُرُوف المعجم كلهَا تذكر وتؤنث كَمَا أَن الانسان يذكر وَيُؤَنث٢

- وَذكر الشَّيْخ أَبُو الْعَبَّاس احْمَد الْبونِي رَحمَه الله قَالَ: منَازِل الْقَمَر ثَمَانِيَة وَعِشْرُونَ مِنْهَا اربعة عشر فَوق الارض، وَمِنْهَا اربعة عشر تَحت الارض.

قَالَ: وَكَذَلِكَ الْحُرُوف: مِنْهَا اربعة عشر مُهْمِلَة بِغَيْر نقط، واربعة عشر مُعْجمَة بنقط، فَمَا هُوَ مِنْهَا غير منقوط، فَهُوَ اشبه بمنازل السُّعُود، وَمَا هُوَ مِنْهَا منقوط، فَهُوَ منَازِل النحوس والممتزجات، وَمَا كَانَ مِنْهَا لَهُ نقطة وَاحِدَة، فَهُوَ اقْرب الى السُّعُود، وَمَا هُوَ بنقطتين، فَهُوَ متوسط في النحوس، فَهُوَ الممتزج، وَمَا هُوَ بِثَلَاث نقط، فَهُوَ عَام النحوس. هَكَذَا وجدته.٣

- حرف الهمزة

قَالَ الازهري: اعلم أَن الْهمزَة لَا هجاء لَهَا، انما تكْتب مرّة ألفا وَمرَّة يَاء وَمرَّة واوا، والألف اللينة لَا حرف لَهَا، انما هِيَ جُزْء من مُدَّة بعد فَتْحة.

والحروف ثَمَانِيَة وَعِشْرُونَ حرفا مَعَ الْوَاو والالف وَالْيَاء، وتتم بِالْهَمْزَة تسْعَة وَعشْرين حرفا.٤

- وتسمية حروف الهجاء الأصل فيها: الطَّرَفُ والجانِبُ، وَبِهِ سُمِّيَ الحَرْفُ مِنْ حُرُوفِ الهِجاء.٥

حرف الزاي

والزَّايُ: حَرْفُ هِجَاءٍ؛ قَالَ ابْنُ جِنِّي: يَنْبَغِي أَن تَكُونَ مُنْقَلِبَةً عَنْ وَاوٍ ولامُه ياءٌ. فَهُوَ مِنْ لَفْظِ زَوَيْت إِلَّا أَن عَيْنَهُ اعتلَّت وَسَلِمَتْ لَامُهُ، وَلَحِقَ بِبَابِ غاي وطاي وراي وثاي وآي في الشُّذُوذ، لاعْتِلَالِ عَيْنِه وَصِحَّة لَامِه، واعتلالُها أنها مَتَى أُعربت فَقِيلَ هَذِهِ زايٌ حسَنة، وكتَبْت زَايًا صَغِيرَةً أَو نَحْوَ ذَلِكَ فَإِنَّهَا بَعْدَ ذَلِكَ مُلْحَقَةٌ فِي الإِعلال بِبَاب راي وَغَاي، لأَنه مَا دَامَ حرفَ هجاءٍ فألفه غَيْرُ مُنْقلبة، قَالَ: وَلِهَذَا كَانَ عِنْدِي قولُهم فِي التَّهجِّي زَايٌ أَحْسَن مِنْ غاي وطاي لأَنه مَا دَامَ حَرْفًا فَهُوَ غيرُ مُتصرّف، وأَلِفُه غيرُ مُقْضيّ عَلَيْهَا بِانْقِلَاب، وغايٌ وبابُه يتَصرف بالانْقلاب، وإعلالُ العين وتصحيحُ اللام جارٍ عَلَيْهِ مَعْروفٌ فيه، وَلَو اشْتَقَقْت مِنْهَا فعَّلْت لقُلْت زَوَّيْت، قَالَ: وَهَذَا مَذْهَبُ أَبِي عَلِيٍّ، وَمَنْ أَمالَها قَالَ زَيَّيْت زَايًا، فَإِنْ كسَّرْتها عَلَى أَفعال قلتَ أَزْوَاءٌ، وَعَلَى قَوْلِ غَيْرِه أَزْيَاء، إِنْ صَحَّت إمالتُها، وَإِنْ كسَّرتَها عَلَى أَفْعُل قُلْتَ أَزْوٍ وأَزْيٍ عَلَى الْمَذْهَبَيْنِ. وَقَالَ اللَّيْثُ: الزَّايُ وَالزَّاءُ لُغَتَانِ، وأَلفها تَرْجِعُ فِي التَّصْرِيف إِلَى الْيَاء وَتَصْغِيرُهَا زُيَيَّةٌ. وَيُقَالُ: زَوَّيْت زَايًا فِي لُغَةِ مَنْ يَقُولُ الزَّايَ، وَمَنْ قَالَ الزَّاءَ قَالَ زَيَّيْت كَمَا يُقَالُ بَيَّيْت يَاءً، ونظير زَوَّيْت كَوَّفْت كافاً. الْجَوْهَرِيُّ: الزَّايُ حرفٌ يُمَدُّ ويُقْصَرُ وَلَا يُكْتَبُ إِلَّا بياءٍ بَعْدَ الألف؛ قَالَ ابْنُ بَرِّيٍّ: قَوْلُهُ يُقْصَرُ أَي يُقَالُ زَيْ مِثْلُ كَيْ، ويُمَدُّ فيقال زَاي بالألف، وَتَقُولُ: هِيَ زايٌ هزَيِّها.٦

والاشتقاق من الحروف قيل عنها كذلك:

إن الحروف يشتق منها ولا تشتق هي أبدًا. وذلك أنها لما جمدت فلم تتصرف شابهت بذلك أصول الكلام الأُوَل التي لا تكون مشتقة "من شيء" ؛ "لأنه ليس قبلها ما تكون فرعًا له ومشتقة منه"،٧

وقد كثر اشتقاق الأفعال من الأصوات الجارية مجرى الحروف نحو: هاهيت، وحاحيت، وعاعيت، وجأجأت، وحأحأت، وسأسأت،

وشأشأت. وهذا كثير في الزجر. وقد كانت حضرتني وقتًا فيه نشطة فكتبت تفسير كثير من هذه الحروف في كتاب ثابت في الزجر، فاطلبها في جملة ما أثبته عن نفسي في هذا وغيره.٨

أما الحروف المقطعة في القرآن بين الكتابة والنّطق بها فلا خلاف في أن هاته الفواتح حين ينطق بها القارئ أسماء الحروف التهجي التي ينطق في الكلام بمسمياتها وأن مسمياتها الأصوات المكيفة بكيفيات خاصة تحصل في مخارج الحروف ولذلك إنما يقول القارئ: (ألف لام ميم) مثلا ولا يقول (ألم) . وإنما كتبوها في المصاحف بصور الحروف التي يتهجى بها في الكلام التي يقوم رسم شكلها مقام المنطوق به في الكلام ولم يكتبوها بدوال ما يقرؤونها به في القرآن لأن المقصود التهجي بها وحروف التهجي تكتب بصورها لا بأسمائها.٩

والحروف المذكورة في القرآن الكريم اذا ما تأمل الباحث أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء. وجدتها نصف أسامى حروف المعجم أربعة عشر سواء، وهي: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون- في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم. ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها: الصاد، والكاف، والهاء، والسين، والحاء. ومن المجهورة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والعين، والطاء، والقاف، والياء، والنون. ومن الشديدة نصفها: الألف، والكاف، والطاء، والقاف.

ومن الرخوة نصفها: اللام، والميم، والراء، والصاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء،

والياء، والنون. ومن المطبقة نصفها: الصاد، والطاء. ومن المنفتحة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والقاف، والياء، والنون.

ومن المستعلية نصفها: القاف، والصاد، والطاء. ومن المنخفضة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والسين، والحاء، والنون. ومن حروف القلقلة نصفها: القاف، والطاء. ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته. وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله. وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته، فكأن الله عز اسمه عدّد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم، إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم وإلزام الحجة إياهم. ومما يدل على أنه تغمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعا في تراكيب الكلم. أن الألف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه الفواتح مكرّرتين. وهي: فواتح سورة البقرة، وآل عمران، والروم، والعنكبوت ولقمان، والسجدة، والأعراف، والرعد، ويونس، وإبراهيم، وهود، ويوسف، والحجر.

فان قلت: فهلا عدّدت بأجمعها في أوّل القرآن؟ ومالها جاءت مفرقة على السور؟ قلت: لأنّ إعادة التنبيه على أنّ المتحدّى به مؤلف منها لا غير، وتجديده في غير موضع واحد أوصل إلى الغرض وأقرّ له في الأسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرة، وكذلك مذهب كل تكرير جاء في القرآن فمطلوب به تمكين المكرر في النفوس وتقريره. فان قلت: فهلا جاءت على وتيرة واحدة؟ ولم اختلفت أعداد حروفها فوردت ص وق ون على حرف، وطه وطس ويس وحم على حرفين، والم والر وطسم على ثلاثة أحرف، والمص والمر على أربعة أحرف

وكهيعص وحم عسق على خمسة أحرف؟ قلت: هذا على إعادة افتنانهم في أساليب الكلام، وتصرفهم فيه على طرق شتى ومذاهب متنوّعة. وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك، سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك. فإن قلت: فما وجه اختصاص كل سورة بالفاتحة التي اختصت بها؟ قلت: إذا كان الغرض هو التنبيه- والمبادي كلها في تأدية هذا الغرض سواء لا مفاضلة- كان تطلب وجه الاختصاص ساقطا، كما إذا سمى الرجل بعض أولاده زيداً والآخر عمراً، لم يقل له: لم خصصت ولدك هذا بزيد وذاك بعمرو؟ لأنّ الغرض هو التمييز وهو حاصل أية سلك ولذلك لا يقال: لم سمى هذا الجنس بالرجل وذاك بالفرس؟

ولم قيل للاعتماد الضرب؟ وللانتصاب القيام؟ ولنقيضه القعود؟ فإن قلت: ما بالهم عدوّا بعض هذه الفواتح آية دون بعض؟ قلت: هذا علم توقيفي لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور.١٠

ورمزية الباء في بسم الله الرحمن الرحيم تؤول:

(بسم) بالباء ظهر الوجود؛ وبالنقطة تميّز العابد من المعبود. قيل للشبلي ري الله عنه: أنت الشبلي؟ فقال: أنا النقطة التي تحت الباء.

وهو قولنا: النقطة للتمييز (بين العابد والمعبود)، وهو وجود العبد بما تقتضيه حقيقة العبودية. وكان الشيخ أبو مدين رحمه الله يقول: ما رأيت شيئا إلاّ ورأيت الباء عليه مكتوبة.١١

والتثليث في البسملة قيل عنها: إنّ كل حرف من بسم مثلّث على طبقات العوالم. فاسم الباء: باء وألف وهمزة. واسم السين: سين وباء ونون. واسم الميم: ميم وياء وميم. -والياء مثل الباء، وهي حقيقة العبد في باب النّداء (البعد) فما أشرف هذا الموجود (عالم الحروف)، وكيف انحصر في عابد (الباء حقيقة العبد في باب النداء) ومعبود (الباء) فهذا شرف مطلق لا يقابله ضد، لأنّ ما سوى وجود الحق-تعالى ووجود العبد، عدم محض لا عين له.١٢

٢- اتجاه ميتافيزيقي روحاني:

أنشأ أصحابه ما يعرف عندهم بعلم الحروف، كانت بدايته على يد علماء التفسير، والنحو، وفقه اللغة عندما حاولوا فهم الظاهرة الفريدة التي جاء بها القرآن الكريم، الذي ابتدأت بعض سوره بحروف مقطعة فاجتهدوا في تفسيرها، ومن خلال ذلك حاولوا فهم علاقتها بباقي الحروف الهجائية، وما يميزها عنها، تم تطور البحث في هذا المجال اعتمادا على ما قدمه علماء الفلك، وبذلك اكتسبت حروف العربية أهمية كبيرة كان سببها الرئيسي تلك الحروف المقطعة، وتلقف ذلك علماء المتصوفة وذهب الكثير منهم في بحثهم عن المعاني الخفية في الحروف انطلاقا من رؤيتهم العامة للظاهر والخفي في الكون، ذهبوا في بحثهم وانشغالهم بالحروف، من حيث دلالتها ومعناها الخفي، إلى الاعتقاد بان لكل حرف من الحروف الهجائية معنى مرتبطا بالذات الإلهية، أو بالكشف عن أسرار الكون، أو بالإشارة إلى درجة من درجات الطريق للوصول إلى الله عز وجل ومن ثم جعلت الألف مثلا في مقام (أحد) وصار رمزا تدور في فلكه معان كثيرة ترتبط بالله، وتطور البحث في هذا المجال عبر العصور ونشأ حديثا ما يعرف بعلم الحروف أو علم الاوفاق، أو علم حساب الجمل الذي هو مرتبط بعلم الأرقام والفلك، وينطلق من دراسة أسرار الحروف انطلاقا مما يقابلها من قيمة عددية تقابله وتحدد وزنه، وهو عند المشتغلين به علم واسع غزير له تأثير كبير وتطبيقات عديدة، له أعلامه في شتى أنحاء العام اليوم.

يرى أصحاب هذا العلم أن الكون منظم بدقة، وهذا لا شك فيه، وكل شيء يتشكل فيه ويدور بمقدار تحدده الأرقام التي تحمل قوة سحرية خفية تبعا لما تعيّنه، إنه علم باطني، يشتغل على ما هو روحاني ميتا فيزيقي، يَهبة الله لمن يشاء من عباده، فالمشتغلون عليه أكرمهم الله جل وعلا بمعرفته، فميزهم عن باقي البشر والعلماء.

وهو عندهم أشرف العلوم التي اشتغل بها الإنسان ويعتقدون أن إدريس عليه السلام كان واضع أسس هذا العلم، وطور ضوابطه وقواعده العلماء والحكماء الذين توارثوه جيلا عن جيل.

وينسب لعلى بن طلب بعض الأقوال التي منها: « لو شئت لأوقر سبعين بعيرا من باء بسم الله الرحمن الرحيم»، والمقصود بذلك لكتبت كتبا عن حرف الباء في البسملة وأسراره تكفي لتحميل سبعين بعيرا.

وينسب إليه كذلك أنه وضع كتابا سماه كتاب «الجفر» ذكر فيه بعض الإسرار القرآنية والعلوم الروحانية استخرجا من القرآن الكريم، لكنه ضاع ولم يصل إلينا، واجتهد في فهم معنى الجفر، انطلاقا من قيمة كل حرف فيه فكانت النتيجة ٣٨٢ وبالقلب نحصل على القيمة نفسها التي للقرآن.

وهذا جدول لقائمة الحروف الهجائية والأبجدية بحسب ترتيبها وقيمتها في حساب الجمل ومن حيث الاستعمال والدوران في الكلام:

الحروف الهجائية الحروف الأبجدية

الحرف	ترتيبه	الحرف	ترتيبه	قيمته
ا/أ/إ/آ	١	أ	١	١
ب	٢	ب	٢	٢
ت	٣	ج	٣	٣
ث	٤	د	٤	٤

ح	٥	هـ	٥	٥
ج	٦	و	٦	٦
خ	٧	ز	٧	٧
د	٨	ح	٨	٨
ذ	٩	ط	٩	٩
ر	١٠	ي	١٠	١٠
ز	١١	ك	١١	٢٠
س	١٢	ل	١٢	٣٠
ش	١٣	م	١٣	٤٠
ص	١٤	ن	١٤	٥٠
ض	١٥	س	١٥	٦٠
ط	١٦	ع	١٦	٧٠
ظ	١٧	ف	١٧	٨٠
ع	١٨	ص	١٨	٩٠
غ	١٩	ق	١٩	١٠٠
ف	٢٠	ر	٢٠	٢٠٠
ق	٢١	ش	٢١	٣٠٠
ك	٢٢	ت	٢٢	٤٠٠
ل	٢٣	ك	٢٣	٥٠٠
م	٢٤	خ	٢٤	٦٠٠
ن	٢٥	ذ	٢٥	٧٠٠
هـ	٢٦	ض	٢٦	٨٠٠
و	٢٧	ظ	٢٧	٩٠٠
ي	٢٨	ع	٢٨	١٠٠٠

تعليق على الجدول:

١- رتبت الحروف الهجائية العربية ترتيبا يعتمد "الأشباه والنظائر" أي تشابه الحروف من حيث رسمها، في عام ٩٠ هـ في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي وقد سمي هذا الترتيب اصطلاحا بالترتيب الهجائي تمييزا له عن الترتيب الأبجدي وعدد الحروف الهجائية، ٢٨ حرفا تبدأ بالألف وتنتهي بالياء.

الألف: الحرف الاول من حروف الهجاء وكذلك أول حروف الأبجدية العربية ومعظم اللغات المتفرعة عن اللغات السامية.

٢- بجمع الأعداد المقابلة لكل حرف من حروف الكلمة أو الجملة جمعا كبيرا أو جمعا صغيرا، نحصل على عدد معين هو قوة تلك الكلمة أو الكلمات.

٣- أنموذج:

ما هو كتاب الله؟: الجواب

هو القرآن العظيم: بجمع قيم الحروف لهذه الجملة نجد ٨٧.

٤- الحروف أجساد وأرواح، أي أن الحرف جسد روحه المعنى كاللفظ تماما، في رسمه دلالة وفي روحه معنى.

إن هذا النوع من البحوث يعطي قيمة عددية معينة لكل حرف من الحروف الهجائية والأبجدية وهي قيمة تمثل قوة الحرف أو روحه، وعند ربط هذه الحروف بعضها ببعض لوضع كلمة أو جملة تكون قوة هذه الكلمة مساوية لمجموع قوة الحروف التي تشكلها، ويكون لهذه الكلمة تأثير على الإنسان.

٣- اتجاه إيقاعي أسلوبي

في النّص تظهر مملكة الحروف جليّة تقيم علاقات تأثير وتأثّر في سلسلة الكلام (حرف، كلمة، جملة / حرف، اسم، فعل...الخ) وباب اشتغال الحروف في هذا المجال باب عظيم، كان قد فتحه القدماء، وتبعهم بعض المحدثين، ولكن من منظور مغاير.

وبذلك تشكّلت نواة مكتبة الحروف التي تهتمّ بتلك النّصوص الأدبيّة والتي تشتغل أكثر ما تشتغل على لعبة الحروف، والنّصوص النّقديّة المرافقة لها وذلك في المرحلة الأولى ، وفي المرحلة الثّانيّة حاولت أن تعمّم ذلك على باقي نصوص آداب العربيّة فمن مكتبة النّص الإلهي المعجز (القرآن) ونصوص التفسير والتّأويل، إلى مكتبة النّص البشري الشّعري والنّثري الفنّي الباحث عن التّفرّد والتّميّز ترتسم ملامح المنهج الذي يشتغل على الحرف،إذ: «يلاحظ دارس الشّعر العربيّ (النّثر الفنّي أيضا) وجود ظاهرة تكرار الحروف المتشابهة أو المتقاربة في النّص وهذا ما يخلق نمطا من الجمال تألفه العين وتأنسه الأذن» (١٣) فالحروف أصوات وأشكال وتجري من السمع مجرى النغم ومن البصر مجرى الألوان.

و يدخل هذا في باب ما تقدّمه الأسلوبيّة في هذا الإطار ويتعدّى ذلك إلى ما سكتت عنه ، جلّ المصادر القديمة و المراجع الحديثة، الّذي سماه " عبد الإله الصّائغ" ب (ظاهرة تداعي الحروف) ، ف : » ثمة العديد من النّصوص الفنيّة وبخاصّة الشّعريّة ، تصلح ميدانا لمعاينة ظاهرة تداعي الحروف حيث نلاحظ حشدا من الحروف يجتاح القصيدة ، فالحرف داخل الجملة أو المفردة يهيّئ السّبيل إلى حرف آخر يماثله نغما أو رسما» (١٤).

وكما توحي الحروف بأنغامها وتعاشقها مع بعضها بمعان فإنّها منفردة تقدّم معان خاصّة بذاتها، مثل:

الصّاد ⟵ الهدهد إذا رفع رأسه

الظّاء ⟵ ثدي المرأة إذا انثنت ...الخ. (١٥)

لا شكّ في أنّ كونا واسعا يرافق ظاهرة تداعي الحروف، وكيف يتم التّناجي بينها، وكيف تدبّ العصبيّة في قبائلها وعوائل إيقاعاتها بحيث تكون آلياتُ تحليل النّص مشغولةَ بالجانب النّغميّ، الّذي تؤسسه الحروف وقد يقذف بحر الشّعر المحيط إلى شواطئ النّقد عددا من النّصوص التي توكل أمر الدّلالة الجمعيّة إلى تذويب الحرف، وتؤسّس شعريّتها على شفرات الحروف (١٦).

لقد تأسّست نصوص كثيرة في آداب العربيّة على الحرف، وعلينا أن ننظر إلى هذه النّصوص نظرة الفنّان التّشكيليّ، و سنجد أنفسنا قبالة تكوينات مذهلة وعلاقات غريبة بين الحرف ونظيره، والآخر وشبيهه قائمة على التّماهي مرّة والتّجاذب أخرى والتنافر ثالثة (١٧).

كثيرة هي النّصوص التي تلعب فيها الحروف لعبة تجعلها من عجائب نصوص العربيّة، فانظر لي ما يرويه "ابن الجوزّي" حيث قال :»تفاوضت أنا وبعض الأصدقاء في حروف الهجاء ، فادّعى أنّه لا يصح كلام إلاّ بمجموعها، ولا يستقيم لفظ تامّ إلاّ بوجود جملتها ، وحدّثني بخطبة معه منظومة محذوف منها حرف الألف فانتهضت القوّة إلى الانتصار لإنشاء خطب حذفت من كلّ خطبة منها حرفا من حروف الهجاء وختمتها بخطبة ليس فيها نقطة فصارت ثلاثين خطبة وقد وسمتها بكتاب عجيب الخطب»(١٨).

إنّ طرق هذا الباب يفتح أمام القارئ العربيّ النّاقد آفاقا رحبة تجعل القدامة تتعانق مع الحداثة ، ومع ما بعد الحداثة في حياتنا الادبيّة المعاصرة دون أن ينقطع تيّار القديم ، وبذلك تتحدّد معالم منهج خاصّ بنص العربيّة يأخذ على عاتقه مهمّة البحث في اشتغال حروف العربيّة في النّص وكيف يلعب دورا في تشكيله من حيث المبنى والمعنى ف:» المعاني جائزة يحصل عليها المتلقّي حيث يفهم الجدل الغامق بين الحروف وعلامات الترقيم و الكلمات والبياض وفضاءات النّص» (١٩).

الهوامش:

(١) ينظر:http : www.drghamin.com

وينظر للمؤلف نفسه، رسم المصحف: ودراسة لغوية تاريخية، العراق ٢٠٠٨، ٤٤،٤٣.

(٢) لسان العرب،ج٠١،ص١٢.

(٣) لسان العرب،ج٠١،ص١٥.

(٤) لسان العرب،ج٠١،ص٣٠.

(٥) لسان العرب،ج٠٩،ص٤١.

(٦) لسان العرب،ج١٤،ص٣٦٦.

(٧) الخصائص، ج٠٢، ص٣٩.

(٨) الخصائص، ج٠٢، ص٤٢.

(٩) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج٠١، ص٢٠٦.

(١٠) الكشاف، ج٠١، ص٢٩ ،٣٠ ،٣١.

(١١) محي الدين بن عربي،الفتوحات المكية،ج٠٢،ص١٣٤.

(١٢) الفتوحات المكية،ج٠٢،ص١٣٩.

(١٣) عبد الإله الصّائغ: الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنية، الحداثة وتحليل النص، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٩، ص١٥٩.

(١٤) ينظر: نفسه، ص ١٧٠.

(١٥) ينظر: نفسه، ص ١٧٤-١٧٦.

(١٦) ينظر: نفسه، ص ١٨٩

(١٧) ينظر: نفسه، ص ١٩٠.

(١٨) ابن الجوزي: عجيب الخطب، ضمن كتاب مجموعة رسائل ابن الجوزي في الخطب والمواعظ والحكايات والفوائد العامة، تح: هلال ناجي ووليد بن أحمد الحسين، سلسلة إصدارات الحكمة، بريطانيا ٢٠٠٠، ص ٩٩.

(١٩) عبد الإله الصائغ: الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنية، الحداثة وتحليل النص، ص١٨٦.